

الأرنب يُدلي بشهادته

أخرجني الأرنب الأبيض من عزلتي. ليس الأرنب الأرنب، ولكنه "الخراج" الذي لحق بالأرنب، ولا يريد أن يبرأ. كان الوقت عصرا عندما خطوت أولى خطواتي على الطريق، أضم الأرنب المذعور إلى صدري.. خفقان قلبه المتلاحق، ونبشه اللحوق في صدري؛ نبأني بكم الهلع الذي يعتريه.. مسدت فروه الناعم؛ فهجع واستكان..

المدينة تحولت لثكنة عسكرية، العسس والجنود يتسكعون في كل مكان؛ ضحكاتهم صاخبة، وألفاظهم نابية.. نباح كلابهم.. رائحة تبغهم، وبارودهم.. بنادق.. دبابات.. وطائرات تنز في السماء؛ كل شيء ملتبس بجو الحرب، رغم أنه لا حرب..

وفيما ألتمس كاللصوص أكثر الطرق أمانا، كان قلبي أنا الآخر يدق.. ومع كل ظهور لأحد العسس أو الجنود، تنتقل رجفة الاضطراب التي تجتاحني للأرنب، الذي بدوره يحشر رأسه في صدري أكثر..

الجدران محملة بملصق وحيد، وكأنها بالفعل دعوة للحرب..

أنا لم أعد أصلح للحرب، أنا جندي روماني دجنته الهزائم، بهلع من منظر السيف، ناهيك عن مشهد الدماء.. جندي روماني صفر الذاكرة، سقطت تفاصيل هزائمه في بئر النسيان، وبقي الطعم مريرا مزعجا..

كما أن هذا الأرنب لم يعد يصلح لتلقيح الإناث، ورغمما عن ذلك أحتفظ به..

الملصق يحمل جملة وحيدة:

"اختر الزعيم من أجل الوطن.."

وبأسفل الجملة صورتان تقسمان مساحة الملصق بالتساوي؛ الصورة الأولى للزعيم يقود سيارة نقل كبيرة، مما تستخدم في نقل الجياد، يرمق مشاهدي الصورة بوعده ما أو توعد ما، أما الحصان فليس داخل الصندوق الكبير كما المفترض، ولكنه

مكبل بالحبال على جانب السيارة من الخارج، مصلوبا عليها.. وبالبعيد، في أقصى الصورة، تظهر مراعي وعشب وجنات غناء..

لم يمهلني الأرنب الأبيض الذي وكزه خوف ما لأفكر في رمزية الصورة، وتلك الرسالة التي بالضرورة موجّهة لأمثالي، ولا أن أتمعن في الصورة الثانية التي ربما هي مفتاح لغز الصورة الأولى.. ربما النظرة الحادة النافذة التي تطفح من عين الزعيم لها دور.. ربما ذكرته بنظرة الأرنب الأسود الشرسة المتوعدة..

الأرنب الأسود الشرس يستأثر بكل الإناث. ليس الإناث فقط، ولكن كل شيء؛ الطعام والشراب والمسكن وكل شيء، وهذا المسكين لا يناله إلا الفتات، إن تبقى هنالك فتات..

هذا الأرنب الأبيض هو الآخر جندي روماني دجنته الهزائم، لم يعد يصلح لخوض معركة..

أسكن حجرة بسطح الدور العاشر، في العمارة المتهالكة المنزوية. أحرقت كل الكتب وقررت تربية الأرناب.. الأرناب أكثر سلاما من الكتب، هي لن تحرض على الفهم، ولن تحرك مياه الأدمية الراكدة، ولن تتواطأ مع عسس منتصف الليل للزيارة الغير مرغوب فيها..

مع الوقت أعلم أنني صرت أرنبا يقف على قدمين..

"الصفات تنتقل بين الكائنات بالمعايشة."

عبارة تمكينية لاذعة، قرأتها في آخر كتاب أحرقتة..

قهقهة ساخرة لجندي ظهر فجأة نهتني، وانزعجتني من شرودي.. مكث يرمق بغرابة الأرنب المدعور على صدري.. الذعر الذي طفح علي أنا الآخر جعله يتمادي:

"أرنبان مدعوران"

لم أعر جملته التفاتا.. أجدت التجاهل منذ زمن..

وولجت إلى زقاق ضيق بدا لي كطوق نجاة.. حتى جدران الأزقة لم تسلم من الملقق.. ورغم غبشة الظلمة كانت الصورة واضحة المعالم..

الصورة الثانية لنفس سيارة نقل الجياد، ولكنها محطمة مهشمة لا شيء فيها سليم، والحصان مقتول بالجوار، على أرض قاسية جدباء، لا زرع فيها ولا ماء، أما الزعيم فلا يبدو له أثر..

لو أنني كنت بجوار رسام الصورة لحظة التصميم، لهمست إليه أن الأرنب أدق وأصلح رمزا للمواطن الصالح، فهو مثله تماما؛ لا يركل، ولا يعض، ولحظة الخطر يهرع فزعا إلى الجحور..

قرأ الأرنب ما يدور بخلدي، فقد اشرب بعينيه إلي مؤنبا.. تنهت أن في الأمر إهانة لم أكن لأقصدها، فقصدت أنه ثمة تقارب صفات بين الكائنين؛ جُبلت الأرنب عليها بلا تدخل أو ذنب، واكتسبها نحن بالمعايشة، تماما كما أخبرني آخر كتاب أحرقتة..

لثمته معتذرا، فاطمئن وهجع..

صار المسكين متزويا حزينا، نقص وزنه وتدهورت صحته. ومن نحو أسبوعين راودته نفسه أن يمتطي إحدى الإناث، فلمحه الذكر الأسود الشرير وعقره في معدته بأسنانه الحادة، تحولت العضة إلى "خراج" باءت معه كل محاولات لعلاجه بالفشل..

وصرت أسير على غير هدى، فالصيدليات البيطرية التي أعلمها مغلقة الأبواب، وكما علمت من الملقق فإن اليوم هو يوم الاستفتاء على الزعيم؛ فإما المراعي والعشب، وإما السيارة المقلوبة والحصان المسكين المضرع في الدماء..

يا لحظي التعس، من أغراني بالخروج في هذا اليوم بالذات.. إنه العجوز الذي يربي الأرنب على السطح المقابل.. قال:

"لابد أن يعطيه الطبيب البيطري حقنة مضاد حيوي طويل المفعول.. لأن "الخراج" تمدد واستفحل في جسد المسكين.."

العجوز هو الآخر أحرق الكتب، واعتكف الأرناب.. الأمور المشتركة بيننا لا حصر لها، بيد أنني يجب أن أتوخى الحذر من نصائحه مستقبلا..

"وما كدت أعرف نواياهم.. حتى أخرجت المطواة قرن الغزال، وشرعت فيهم تشريحا.. كانوا ثلاثة.. وكنت واحدا.. ولكن أمثالهم خراف.."

اقتلعتني من شرودي الحديث الدموي، وانقبضت أساري..

وجدت نفسي أسأل دونما تفكير:

"ولم؟!.."

وعضضت على شفقي ندما عندما التفت إلي.. من ملامحه ووجهه المشوه بالندوب؛ هو بلطجي ممن عاشوا تحت الأرض حيناً، ثم ماجت بهم المدينة وظهروا للشمس عيانا بيانا.. أمثاله يحبون الزعيم، ربما أكثر من العسس والجنود..

أجابني وعيناه تتقد بشرر، فيما يفرد المصق ذي الصورتين:

"كانوا ضد الزعيم.."

ازدردت غصة علقت بحلقي، وأنا أومئ برأسي متفهما، فيما تكور الأرناب بصدري أكثر.. وحاولت المضى، ولكنه أبى.. أمسك بسترتي.. وهمس بصوت كالفحيح، ويده تعبث في جيب ستوته، أظنها تستعد بالمطواة:

"وأنت؟"

أشرت من فوري إلى الحصان المصلوب على السيارة المتجهة إلى المراعي.. فطفرت على ندوبه ابتسامة شريرة، وقال:

"حسنا.. تقدم أمامي.."

وعلى مدخل اللجنة، وجدت نساءً سمينات خانعات، ورجالا ممصوصين، مُعدمي الهيئة، ذوي نظرات تائهة..

قلت في نفسي:

"الرجال قهرهم الزعيم، وأن شأنه شأن الأرنب الأسود؛ هو الذكر الأوحى في المدينة.. والنساء رضخن لهذه الحقيقة، وسمن عليهن.."

وبحثت خلف كل واحد منهم عن مطواة تهدده، فلم أجد سواي.. همست
لنفسي، وقد داعبني طيف من تباهي:

"أنا أحسن منكم حالاً.. فأنا مضطر.. أما أنتم فقد أتيتم لاختيار العشب
بمحض إرادتكم.."

أمام ورقة الاستفتاء رمقني مراقب اللجنة، مستشفاً نواياي، واجهته نظرات
الأرنب المذعور بداخلي، وهذا المحمول على صدري.. وضع القلم على العشب وفح:
"اختر.."

تجاهلت فحججه، وسألت:

"لم الحصان مصلوباً على جانب السيارة أثناء نقله للمراعي، وليس مُكرماً
داخل الصندوق الكبير؟!.."

حدجني بنظرة ذكرتني بنظرة صاحب المطواة، وزعق:

"يا أيها الأرنب.. ما يهكم هو أرض العشب.. وليس أكثر.."

بلا مجهود يُذكر، أقنعت نفسي بالإجابة والصمت.. وبهد مرتعشة أمسكت
القلم.. وفي اللحظة الفاصلة وكزني الأرنب اللعين؛ فانقلت القلم إلى السيارة المهشمة
والحصان المقتول.. في الحقيقة لا أعلم، أي الأرنبين السبب، ذاك القابع بداخلي أم
الأرنب ذو الخراج، كل ما أعلمه هو أن المدينة بأسرها انطلقت تطاردني..